

Characteristics of Dr. Mahmoud Al-Bustani's Structural Approach to the Qur'anic Text

Muhammad Al-Hamidawi

Ph.D. in Arabic Language and Literature – University of Tehran

mohamad.313@hotmail.com

DOI: <https://doi.org/10.31973/3n8b3n74>

Abstract

The study at hand dealt with the characteristics of Dr. Mahmoud Al-Bustani's constructivist approach and the features that distinguished that approach from other approaches which attempted to clarify the organic unity of the Qur'anic text. It alluded to the theoretical components of that approach and its distribution between a religious heritage, data from psychological schools, modern literary techniques, and demonstrated his visions. Concerning reading and its controls, it sheds light on his reservations towards ancient rhetoric and clarified his perceptions of the typical rhetorical approach, and his belief in the relativity of rhetorical principles which in turn leads to that the rhetorical miracle of the Qur'an remains open, and is not determined by the principles of this generation or that. Rather, there always remain other principles, which may be uncovered through the process of discovery practiced by each generation. The study concluded that the most apparent features of Al-Bustani's constructivism lie in singling out a distinct position for the recipient, the concept presented by Al-Bustani about (receiving) can be considered an isthmus between the direction of negative reception, which makes the recipient an element of consumption and emotion, and the direction, which makes the recipient (creative) and a contributor to the production of the text.

In addition, it is found that Mahmoud Al-Bustani finds no objection to adopting the common human tributaries in the issue of reading, as long as Islam does not set detailed rules for (reading) and prevents anyone from transgressing them. This means that it leaves, within certain conditions, a large space for human experience and expertise in creating a curriculum. (Reading), takes into account a number of determinants, and it follows that any approach that undertakes to read the Qur'anic text will impose its justifications and gain its legitimacy, regardless of the nature of the approach and its approach in dealing with the text and uncovering its characteristics, while remembering the necessity of that approach being the product of principles. Considerable scientific or artistic, and in so far as the issue does not lead to chaos and absurdity in understanding or contradicting the purpose that the religious text wants to convey to people.

key words: Al-Bustani, Approach, Characteristics, Constructivism , The Qur'anic text

خصائص مقارنة الدكتور محمود البستاني البنائية للنص القرآني

د. محمد الحميداوي - دكتوراه في اللغة

العربية وآدابها - جامعة طهران -

مجمع الفارابي - كلية الإلهيات

mohamad.313@hotmail.com

(مُلخَصُ البَحْثِ)

تناولت الدراسة التي بين أيدينا، البحث في خصائص مقارنة الدكتور محمود البستاني البنائية والميزات التي تميزت بها تلك المقاربة عن غيرها من مقاربات حاولت استجلاء الوحدة العضوية للنص القرآني، فألمحت إلى المكونات النظرية لتلك المقاربة وتوزعها بين موروث ديني ومعطيات مدارس نفسية وتقنيات أدبية حديثة، وبينت رؤاه بشأن القراءة وضوابطها، وسلطت الأضواء على تحفظاته تجاه البلاغة القديمة وأوضحت تصوراتها عن المنهج البلاغي النموذجي، وإيمانه ب(نسبية المبادئ البلاغية) الذي يفضي بدوره إلى القول بأن الإعجاز القرآني البلاغي يظل مفتوحًا، ولا يتحدد بمبادئ هذا الجيل أو ذلك، بل تبقى على الدوام ثمة مبادئ أخرى، قد يماط عنها اللثام من خلال عملية الاكتشاف التي يمارسها كل جيل، ووجدت الدراسة أن إظهار ميزات بنائية البستاني، تكمن في إفرادها موقعًا متميزًا للمتلقي، إذ يمكن عدّ التصور الذي قدمه البستاني عن (التلقي)، برزخًا بين اتجاه التلقي السلبي الذي يجعل من المتلقي عنصر استهلاك وانفعال وبين الاتجاه الذي يجعل من المتلقي (مبدعًا) ومساهمًا في إنتاج النص.

وجدت الدراسة أن محمود البستاني، لا يجد مانعًا في اعتماد الروافد الإنسانية المشتركة في مسألة القراءة، ما دام أن الإسلام لم يضع قواعد تفصيلية لل(قراءة) ومنع تجاوزها، فهذا يعني أنه ترك وضمن شروط معينة مساحة كبيرة لتجربة الإنسان وخبرته في ابتكار منهج (قراءة)، يأخذ في الحسبان جملة من المحددات، وترتب على ذلك أن أية مقارنة تتكفل بقراءة النص القرآني، ستفرض مسوغاتها وتكتسب مشروعيتها، بمعزل عن طبيعة المقاربة ومنهجها في التعاطي مع النص والكشف عن خصائصه، مع التذكير بضرورة أن تكون تلك المقاربة، نتاج مبادئ علمية أو فنية معتبرة، وربما لا تخرج المسألة معها إلى الفوضى والعبثية في الفهم أو مناقضة الغرض الذي يريد النص الديني، إيصاله للناس.

الكلمات المفتاحية: البستاني - البنائية - خصائص - مقارنة - النص القرآني.

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين. كان القرآن الكريم وعلى الدوام، عصب حياة الدراسات الإسلامية والعربية، فهو باعث تأسيسها وسبب تطورها؛ لأنها ما جاءت إلا بهدف استيضاح معانيه، وفهم مراميها، والكشف عن جمالياته وأسراره، ومعرفة طبيعته وإعجازه، واستظهار قواعد التعبير وطرائق إيصال المعنى منه، فهو أبداً النموذج الذي يحتذى، والنص الذي لا يبلى « ظاهره أنيق، وباطنه عميق. لا تقنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات إلا به » (محمد عبده، ١٤١٠ هـ / ١٩٩٠، ١: ٥٥)

لقد تفاوتت التعاطي مع النص القرآني ومر بمراحل تطور، تردد فيها بين تناول جزئي يقوم على الفهم التجزيئي لآيات الكتاب الكريم وآخر موضوعي، يتحرى معنى موضوع محدد في سائر الآيات والسور، وثالث يفتش عن تناسب الآيات والمقاطع ويستهدف الكشف عن تلاحمها واتصالها، ورابع يقارب النص بوصفه وحدة واحدة، يتموضع وراءها معنى كلي، وخامس يبحث عن ذلك كله لكنه يروم بيان هندسة النص التي يقوم عليها بناؤه وتحليل مكوناته وكشف أدوات اتصاله.

والدكتور محمود البستاني، من أظهر الباحثين الذين راموا المعنى الأخير، في تعاطيه مع النص القرآني انطلاقاً من اعتقاده أن بناء السورة القرآنية، يتماثل في وظيفته مع العمارة الخاضعة لهندسة خاصة أو الجهاز الجسمي في تواشج أعضائه بعضها مع الآخر. لقد استهدفت هذه الدراسة، تسليط الأضواء على خصائص المقاربة البنائية للنص القرآني وعموم النص الأدبي التي دعا إليها البستاني ووضع في سبيلها مؤلفات عدة، وأهم النقاط التي تميزت بها عن تلك المقاربات التي رامت ما رامه البستاني.

المبحث الأول: البنائية

البنائية عبارة عن منهج نسقي داخلي، يدرس النص من الداخل وينظر إليه على أساس أنه وحدة متصلة، ومنظومة علاقات متشابهة، تتلاحم فيها أجزاء النص وتتشابك حتى تكون كالبنيان، وفي حالات كثيرة، تنتهج البنائية، مقاربة كلية للنص، تعنى بدراسة السورة أو السور القرآنية باعتبارهما كلاً ووحدة واحدة، متصلة العناصر، مترابطة الأجزاء، تنطوي على غرض أساس، وفكرة رئيسة تمثل المعنى الكلي للنص .

أسماها طه جابر العلواني بـ (الوحدة البنائية)، وأراد منها البناء العام لآيات السورة الواحدة ، وبحسبه فبنائية القرآن الكريم، تعني : « أنه بكل سوره وآياته وأجزائه وأحزابه وكلماته يعتبر كأنه جملة واحدة ». (العلواني، ٢٠٠٦م، ١٣)

وهو تعريف ينطوي على عمومية، تكاد تضيع معها ملامح (البنائية) ولا يعكس طبيعة التسمية وسر انتقاء هذا الاصطلاح من دون غيره. وفي السياق نفسه عبر عنها محمود البستاني بـ (عمارة السورة) وسبب التسمية عنده، يرجع الى اعتقاده بأنَّ بناء السورة القرآنية من حيث كونها هيكلًا عضويًا، يتماثل في وظيفته مع العمارة الخاضعة لهندسة خاصة أو الجهاز الجسمي في تواشج أعضائه بعضها مع الآخر.

ومن هنا عرّف المنهج البنائي بأنه: «دراسة النص القرآني من خلال (السورة) بضمنها (وحدة) لغويّة لها بناؤها الخاص المتمثل في نص تتربط آياته وموضوعاته وعناصره وأدواته بعضها مع الآخر» وعليه تكون وظيفة المنهج البنائي، الكشف عن ذلك البناء، من خلال تحليل موضوعات السورة والكشف عن صلتها، بعضها مع بعضها الآخر، وصلة أولئك جميعاً بالعناصر الأخرى: كالصورة والإيقاع والحوار والقصة..» . (البستاني، ٢٠٠١م، ١٣). يحلل البستاني، حمولات النص الأدبي على وفق خطوات، تقضي بالنهاية إلى ظهوره بمظهر الشبكة الدلالية التي تلتقي عندها الدلالات الجزئية، فالنص الأدبي، مجموعة من (الموضوعات) التي تتضمن فكرة أو (هدفاً)، وهذه الموضوعات و الأهداف تشتمل على فروع أو أجزاء أو أقسام، مرتبة على وفق تخطيط هندسي بحيث إذا غيرنا مكان واحد منها، ووضعناه مكان الآخر أو حذفناه، أو قدّمنا أو أخرنا بعضاً منها عن الآخر، يحدث (خلل) في موضوع الحادثة و فكرتها. (البستاني، ١٤١٤ هـ، ٣١٥)

إنّ هذا الأمر يتواءم مع روح البنائية عند البستاني، والمنهج (المعماري) في تناول النص من حيث كونه، هيكلًا عضويًا، يتماثل في وظيفته، مع (العمارة) الخاضعة لهندسة خاصة. إنّ ترابط (الأجزاء) أو (الأقسام) فيما بينها، وتتاسق كل واحد منها مع الآخر، تقضي بمجموعها إلى تحقيق الغرض الفكري الذي تستهدفه السورة، ووفقاً لهذا التصور الذي يقدمه البستاني، فإنّ ثمة وحدة عضوية، تتشابك من خلالها أجزاء الصورة، لتتكامل بالنهاية، وحدة دلالية تستوعب، الروافد الجزئية كافة، وهذا التشابك الدلالي، هو نتاج الغرض الكلي الذي يريد النص إيصاله إلى المتلقي..

إنّ التلاحم والتشابك بين الأجزاء - بحسب البستاني - يفرض عدم النظر لكل (جزء) منفصلاً، عن علاقته بالأجزاء الأخرى، وعلاقة هذه الأجزاء جميعاً بـ (وحدة) الفكرة و الموضوع، لأنّ النظر إلى كل جزء على حدة، يجعل النص فاقداً، وحدته الفكرية والموضوعية التي تستهدفها، ومعنى ذلك أنّ وجود الجزء بشقه الدلالي، رهن في كونه جزءاً ضمن (كل) وإن الجزء قد ينطوي على معنى في نفسه، لكن هذا المعنى لا يشكل جزءاً من المعنى العام الذي يهدف النص، تحقيقه .

نعم، يمكننا (من أجل الدراسة فحسب) أن نفصل (الجزء) عن (وحدة) النص، و لكن بشرط أن نربطه بعد ذلك بتلك الوحدة . (المصدر نفسه). يمكننا من خلال تتبع تجليات الوحدة البنائية في النص القرآني، أن نميز بين مستويين:

الأول: المستوى الجوهري، ويتقوم بالترابط بين أجزاء النص وتلاحمها، وبالمعنى الكلي الذي يستهدف النص تحقيقه، إذ فيها يكون الكل أكبر من مجموع الأجزاء، والأول أي الترابط النصي محل وفاق بين المؤمنين بالوحدة القرآنية منذ بواكير ظهورها، فيما مرّ الثاني أي الإيمان المعنى الكلي القابع وراء ترابط الأجزاء بتطور ومراحل حتى اشتد عوده واكتملت شخصيته، وهو ما ستأتي الإشارة إليه في معرض تناول جهود دارسي القرآن في تجلية الوحدة بما تتطوي عليه من ترابط وغرض رئيس للنص القرآني.

الثاني: المستوى العرضي، وهذا المستوى يتعلق بالجانب الشكلي للنص والمبادئ والطرائق التي يتبعها المفسر وقارئ النص في تجلية الوحدة الكلية للنص، تدخل في ذلك العناصر اللغوية وطريقة صياغتها وسائر العناصر الثانوية بحسب محمود البستاني التي توظف لتحقيق البناء النصي أو إنارة هدفه.

إنّ المتتبع لمقاربات المتقدمين، لبنية القرآن الكريم على مستوى بعدها الشكلي والدلالي، يجدها تتركز على الاهتمام بنظم القرآن وأسلوبه وتركيبه، مروراً بالروابط الخطية بين الآيات والسور، وانتهاء بمقاربة السورة أو مجموع السور على أساس أنها وحدة واحدة.

لقد حظي النسق القرآني على مستوى بناء السورة الكاشف عن تناسق أجزائها، وترابطها المعنوي، بعناية خاصة من لدن المشتغلين، بالحقل القرآني، وقد تزايد هذا الاهتمام من رؤية تتمحور حول علاقات اللفظ والمعنى التي عبرت عنها نظرية النظم في بعض تفسيراتها البلاغية، إلى ملاحظة ارتباط أي القرآن بعضها ببعض وضرورة التأليف فيما بينها، حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء، مثلما عبر عنها علم المناسبة، وصولاً إلى المستوى الذي تم فيه تجاوز الرؤية التجزئية، إلى طلب المعنى العام الذي تجود به السورة، إذ تلتحم موضوعاتها وتتشابك عناصرها، ويتماسك بنائها ويتسق معناها في سيرها إلى مقصود واحد وهدف فارد، على ما انتهت إليه (الوحدة) باختلاف مسمياتها. إنّ الوصول إلى الرؤية الكلية للقرآن الكريم، قد سار سيراً تصاعدياً عبرت عنه محاولات علمية، يمكن اختزالها في ثلاث محاولات، هي:

١- النظم

٢- المناسبة

٣- الوحدة (النظمية - الموضوعية - العضوية - النسقية - البنائية).

تعددت تسميات المقاربة الكلية للسورة أو السور القرآنية عند المعاصرين واختلفت بحسب اختلاف مناهجهم ومبادئهم التي انطلقوا منها للنظر في النص القرآني، فهناك من قارب السورة بروحية الأديب فكان يغلب على التسمية عنده، الطابع الفني والأدبي، مثلما هو الأمر في تسمية مصطفى صادق الرافعي لها (بالروح) وهي روح التركيب الخاصة بالقرآن دوناً عن باقي كلام العرب، وبسببها يُرى القرآن «كأنما وضع جملة واحدة ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين، إذ تراه ينظر في التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها، ثم إلى تأليف هذا النظم: فمن هنا تعلق بعضه على بعض، وخرج في معنى تلك الروح صفة واحدة؛ هي صفة إعجازه في جملة التركيب» (الرافعي، ١٩٩٧ م، ١٦٢).

ويستشف من سيد قطب، تسميتها بالوحدة النسقية أو الشخصية، وهي تسمية تعود إلى طبيعة منهجه (الجمالي) الذي قارب به القرآن الكريم وكتب على أساسه كتابيه: (التصوير الفني في القرآن الكريم- مشاهد القيامة في القرآن) و بقي حاضرًا في تفسيره الضلال. (الخالدي، ٢٠٠٠ م، ١٣).

وفي السياق نفسه، يستظهر من محمد عبد الله دراز، تسميتها بالوحدة العضوية، إذ تظهر فيها السورة ذات بنية متماسكة، ووحدة ونظام معنوي (رشواني، ٢٠٠٩ م، ٢٧٢). وهي تسمية مستوردة من الدراسات الأدبية، وحققتها في النقد الحديث، ترجع إلى وحدة الصورة، و«وحدة الصورة هي بالضرورة وحدة الإحساس أو هيمنة إحساس واحد على القصيدة كلها، وعلى هذا فالوحدة العاطفية هي دليلنا على تحقيق الوحدة العضوية في العمل الفني». (العشماوي، ١٩٧٩ م، ١١٠).

ورأى بعض الدراسين «أنَّ القرآن الكريم يجمع أحسن ما يكون الجمع بين الناحيتين الفنية والدينية، وأنَّ الناحية الفنية وسيلة دائماً للناحية الدينية ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى» (باجودة، ١٩٧٤ م، ٣٥). وعلى هذا الأساس عرّف الوحدة الموضوعية بأن «يكون العمل الفني متماسكاً إلى أبعد درجات التماسك بحيث إنَّ كل جزئية تفضي إلى التي تليها، ولا يمكن حذف جزئية واحدة؛ لأنَّ العمل الفني يستغني عنها أو إضافة جزئية أخرى يفتقر إليها». (المصدر نفسه).

وقد أسماها عبد الحميد الفراهي بـ (النظام) الذي يخضع له القرآن من أصغر وحدة (الآية) إلى أكبر وحدة تمثله (السورة) في حال انفرادها أو اتحادها مع سور أخرى، فإنَّك «تجد نظم سورة مع سورة أخرى مشابهة لنظم آيات جملة واحدة ولنظم كلمات آية واحدة». (الفراهي، ١٩٦٨ م، ٢٨). تقوم تسمية المقاربة الكلية عند مالك بن نبي على طبيعة موضوعات السورة القرآنية وعلى طبيعة تنزل الآيات، فترددت التسمية لديه بين (الوحدة التشريعية) و(الوحدة التاريخية) و(الوحدة الكمية)، وهي: «مجموع الآيات المتتابعة التي تسهم

في اكمال فكرة واحدة، وهذا العدد يمكن أن يهبط إلى الحد الأدنى، في آية واحدة، ويمكن أن يرتفع إلى الحد الأقصى في سورة كاملة». (ابن نبي، ٢٠٠٠ م، ١٨٣).

ونجد التسمية عند سعيد حوى في (الأساس في التفسير) ب (الوحدة القرآنية) وهي وحدة شاملة لجميع سور القرآن، قائمة على اعتبار سورة البقرة تفصيلاً لما أجملته الفاتحة، وما بعد البقرة تفصيل لها، إذ إنَّ كل سورة على علاوة على وحدتها الموضوعية الخاصة، ناظرة إليها، ومفسرة لمحور إنطوت عليه سورة البقرة.

(<https://quranpedia.net/book>/٢٢٤٤٩). وبلحاظ تماثل السورة القرآنية مع العمارة الخاضعة لهندسة خاصة، أسماها محمود البستاني ب (عمارة السورة) وسمى منهج الكشف عن تلك العمارة ب (المنهج البنائي) وقد حدد مستويات من البناء الذي ينتظم السورة القرآنية، ينسحب على جزئيات السورة، آية واحدة أكانت أم آيات متعددة، مقطعةً كانت أم قسماً، وقد وضع في هذا الصدد دراسة نظرية حدد فيها الأساس الموضوعي الذي يقوم عليه بناء السورة القرآنية، وحاول تطبيق ذلك عملياً في تفسيره الذي اصطلح عليه ب (التفسير البنائي للقرآن الكريم).

المبحث الثاني: خصائص مقارنة الدكتور محمود البستاني

إنطوت مقارنة الدكتور محمود البستاني، على خصائص مهمة، جعلتها متميزة عما سواها من مقاربات، حاولت الخوض في موضوعة (الوحدة القرآنية)، ولا نزع أن كل ما جاء به البستاني، لم يسبق إليه سابق أو يخض من قبل فيه خائض، لكننا نرى أن ما قدمه البستاني متميزاً في عمومته وتفصيله، فمجموع البنائية بأبعادها النظرية والتأصيلية (إن نظر إلى المجموع بما هو مجموع)، تعد ولا ريب (بستاني) الابتكار والإبداع، وتفاصيل ما عرضه وجزئياته، ينطوي على إبداع لافت سواءً أكان ذلك في الشق النظري أم في التطبيق العملي. وكيفما كان، يمكن أن نجمل أهم ميزات مقارنة الدكتور البستاني ضمن عنوانات متعددة:

- التأصيل النظري

إنَّ مقارنة الدكتور محمود البستاني البنائية، تكاد تكون الوحيدة من بين المقاربات الموضوعية التي تتكى على تأصيل نظري، يتميز بالشمولية والاستيعاب، منفصلاً عن التطبيق العملي، عبر عنه البستاني ب (المنهج البنائي في التفسير) وكرر جملة من مطالبه في إصداراته الأدبية والبلاغية والتفسيرية، وقد وظف الدكتور محمود البستاني، شبكة من المعارف في تثبيت أسس نظريته البنائية والمسوغات الفكرية التي قادته لتبنيها، بعضها يرتبط بالجانب العقدي، وبعضها يتصل بالجانب العقلاني في التعاطي مع الخطاب والنص، وبعضها الثالث، يمثل نتاج المدارس النفسية والفلسفية، ورابعها يفتح على آخر النظريات النقدية التي تؤمن بكلية المعنى والوحدة العضوية للنص.

يأتي هذا على خلاف الأغلبية الساحقة ممن اشتغلوا ببيان الوحدة العضوية في النص القرآني، إذ لم يقدموا لمحاولاتهم تلك تنظيراً يستوعب تفاصيل عملهم ويشكل مظلة معرفية له، اللهم إلا محاولات متناثرة هنا أو هناك، جاءت غالباً في ثنايا عملهم التفسيري وممتزجة به، وربما تعد إسهامات بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) وبرهان الدين البقاعي (ت ٨٨٥ هـ) أهم محاولتين على المستوى النظري في محاولة رسم ملامح الوحدة العضوية لسور القرآن الكريم وآياته، ومع ذلك فقد جاءتا محدودتين من الجانب النظري بحدود التواصل الدلالي والصيغة الشكلية، ولم يحدد فيهما، الوسائل التي تمكن قارئ القرآن من النفوذ إلى عمق بناء السورة القرآنية والتواصل مع جميع جزئياتها المكونة لعمارة النص القرآني، من حيث صلة أجزائه بعضها مع الآخر، وصلة كل عبارة بما تقدمها وتأخر عنها، وصلة الموضوعات بعضها مع الآخر، ثم صلة العناصر بعضها مع الآخر، مثل: الإيقاع أو الصورة أو غيرهما بمجموع النص و هيكله العام.

إنّ ملاحظة هذا المجموع من حيث هو مجموع، ظل غائباً في البعدين التنظيري والتطبيقي بالكيفية التي نلاحظها عند الدكتور محمود البستاني، من دون أن يعني ذلك غياب البعدين تماماً عن محاولات ما قبل محاولة البستاني التفسيرية، لكن الكلام في السعة والشمولية في الحقلين النظري والتطبيقي، وتبقى الخصائص الذاتية لكل مقاربة، متأثرة بشخصية المفسر وحدود ثقافته وتنوعها، فضلاً عن أنّ عمل غالب من بحث الوحدة العضوية، بقي متمحوراً في العادة، حول النص القرآني من دون محاولة استشفاف نص مثالي يصلح أن يكون انموذجاً يحتذى به ويسنج على منواله في عموم الحقل الأدبي، بخلاف النظرية البنائية في عمارة النص عند الدكتور البستاني، والتي لم تختص بالنص القرآني فحسب بل دارت مدار النص الأدبي أينما وجد، فالبستاني يتعاطى مع القضية في تأسيسه النظري لها. وفي بعض جوانبه. تعاطياً عقلانياً، ويضع نصب عينيه، النظريات النقدية في آخر نتائجها مضافاً إلى مخرجات علم النفس الحديث، ومن ثمّ فهو لا يقارب القضية من زاوية غيبية محض؛ لذا نراه يوسّع من منهج النظرية فيجعله شاملاً وعموم النتاج الأدبي، ووضع في هذا الصدد مجموعة من المؤلفات التطبيقية بهدف تحليل الشعر والخطبة والقصة، تحليلاً بنائياً، وإن كان القرآن الكريم، قد أخذ من هذا المنهج حصة الأسد، وربما يأتي ذلك متوافقاً مع إيمان الدكتور البستاني ب (أسلمة الفن والأدب) وموقعية القرآن الكريم في هذا الاتجاه المعرفي. (الحميداوي، ٢٠٢٣ م، ٢٦٣).

يفتح التنظير البنائي عند الدكتور محمود البستاني، على الأسس الكلامية والتجربة النبوية وهدف الرسالة السماوية (محمود البستاني، ٢٠٠١ م، ص ١٤)، وهو يجعل ذلك كله وعبر تأصيلات نظرية، شواهد حيّة على مشروعية منهجه البنائي في التعاطي مع النص

القرآني، والبستاني في تنظيره هذا لم يبق حبيس المقولات الدينية ولا تعاطى مع مسألة كشف بناء النص القرآني، تعاطياً دينياً صرفاً يجعله (متعبداً) بما تفرزه المقولات الدينية وحسب، بل وجدناه ينتقل إلى فضاءات أوسع، حيث التجربة الإنسانية بما هي روافد عقلانية لم يمنع الدين من الأخذ بها أو اعتماد يقينياتها المدللة؛ لذلك كانت مسألة التعويل على مخرجات المدارس النفسية، وتأثيرها على عملية التلقي، أحد أهم مكونات البنية النظرية التي ينطلق منها البستاني في تأصيل مقارباته التفسيرية والأدبية، فعملية (التلقي) وبحسب البستاني تمثل وبما تستدعيه من قوانين ذهنية، جانباً معرفياً لا يمكن إغفالها في دراسة البناء العضوي للسورة القرآنية « بما تواكبها من معرفة قوانين الإدراك الذهني وأساليب استثارته، حيث تقف في مقدمتها: ظاهرة الاسـتجابة الكايـسة للشـيء »
(https://www.ruqayah.net/subject.php?id=٦٨٢)

لا يجد الدكتور محمود البستاني، ضيراً في عدّ القرآن الكريم، نصاً أدبياً فالسورة القرآنية بحسب تعريفه لها، عبارة عن «شكل فني متفرد من بين جميع الأشكال الأدبية المألوفة لدى البشر، بحيث يتميز بها القرآن الكريم فحسب دون أن يشاركه غيره في هذا الشكل» (البستاني، ١٤٢٤ هـ ، ١٤٩) وعلى الرغم من أدبية النص القرآني، إلا أنه يظل محافظاً على تميزه من جهة شكله المتفرد والذي تمثله السورة القرآنية، ومن جهة إعجازه الذي عبر عنه بناؤه العجيب.

والدكتور البستاني، يتعاطى مع القرآن الكريم، كونه منتجا إلهيا من جهة صدوره، ولكنه في الوقت نفسه، يستعين في سبيل اكتشاف بنائه ونظمه الفريد بأدوات بشرية، وهي أدوات نجدها حاضرة في التعامل مع النصوص البشرية، ولكن مع ذلك تبقى ميزة توظيفها من البستاني في النصوص القرآنية، تكمن في أمرين:

الأول: إنّ الآليات الإجرائية التي اتبعتها في استنطاق القرآن الكريم، تمتلك مشروعيتها من داخل الدين ولو عبر عدم الممانعة الذي يطلق عليه (الإمضاء أو الإقرار) في لغة العلوم الدينية.

الثاني: إنّه لا يستبعد الطبيعة الإلهية ولا الصفة الربانية للقرآن في ممارسته الإجرائية، فيستحضرها في طول كشفه البنائية، ويعتمدها في تنظيره لقضية (لا نهائية الدلالة) أو ضرورة كون النص منظوياً على هدف، حدده له منشؤه تبارك وتعالى . بحيث لا يخرج في تأويلاته ولا دلالاته إلى مآلات، تفضي إلى نقض الغرض من أصل تنزيله للبشر.
(:https://www.ruqayah.net/subject.php?id=٦٨٢)

صحيح أنّ المنهج البنائي الذي اعتمده البستاني في مقارباته، يصنف لكونه منهجاً نسقياً داخلياً، يدرس النص من الداخل وينظر إليه على أساس أنه وحدة متصلة، ومنظومة

علاقات متشابكة، تتلاحم فيها أجزاء النص وتشابك عناصره، فتقتادنا إلى معنى كلي وهدف عام وراء السورة، لكن ذلك لا يعني فصل النص عن منشئه، وجعله ملكاً للقارئ بما يؤدي إلى لا نهائية تأويلية، وصفها الدكتور البستاني بالعبث والفوضى، ومن هنا نجد يعتمد أسباب النزول ويستحضر الآثار الروائية في التفسير، لكن مع ذلك كان هذا إجراءً محدوداً، ولعل سبب المحدودية تلك، راجع إلى ما ذكرناه عن طبيعة المنهج الذي قارب البستاني من خلاله القرآن الكريم، وهو منهج ذو نزعة داخلية، لا تتم الاستعانة بخارجه إلا بمقدار الضرورة والحاجة، وفي سياق متصل، نرى الدكتور محمود البستاني، يحاول الجمع بين الآثار التفسيرية الواردة في نص معين، ويقرب بينها، بما يجعلها منسجمة مع بناء النص، ففي المقطع الثالث من سورة آل عمران والذي يشمل الآيات (١٠ . ١٩) والتي نجدها تكرر اصطلاح : الكافرين، قد تفاوتت النصوص في تحديد المقصود من هذا المصطلح في المقطع القرآني، فتشير بعض النصوص إلى أن المعني بهم (اليهود) ويشير بعض آخر إلى أنهم (النصارى)، ومع ما يبدو أنه تعارض، يقول البستاني: «أما نحن بصفتنا نعى بدراسة العمارة الفنية للسورة، لا نجد أدنى تعارض بين هذه النصوص التفسيرية» (البستاني، ١٤٢٣هـ، ١ : ١٤٤). فإن وجد البستاني، بعض الآثار غير متواءم مع ذلك البناء، عمد إلى الترجيح بين تلك الآراء؛ تعويلاً منه على توافق بعض تلك الآثار مع العنصر البنائي الذي تنطوي عليه السورة من عدمه، ففي موضوع القسم في سورة العصر، نراه يقول: «بالرغم من أن النصوص المفسرة، تتفاوت في تحديد الغرض منه كالذهاب إلى أنه الزمن مطلقاً، أو العشي منه، أو أنه صلاة العصر، إلا أن المبنى العماري للنص يقوي، الاحتمال الفني الذاهب إلى أن المقصود من ذلك هو الزمن؛ لأن الزمن هو الوسيلة التي يتحرك الإنسان من خلالها لممارسة مهمته العبادية، وبما أن النص أقسم بأن الإنسان لفي خُسْرٍ، حينئذ نستنتج بوضوح بأن المقصود منه هو الزمن الذي يخسره الإنسان في حالة عدم استثماره للمهمة العبادية» (المصدر نفسه، ٥ : ٤٠٢)، وفي مثال ثالث، يستحضر البستاني، الاتجاه العام الذي تعبر عنه مقاطع السورة، بما في ذلك استهلال السورة بموضوع معين واختتامها بنفس الموضوع، وهو ما يتواءم مع البناء الهندسي للسورة الممتد على طول النص، ففي بيان المقصود ب (النبأ العظيم) الذي تفاوتت وجهات النظر التفسيرية، حياله بين كونه القرآن أو الرسالة أو صفات الله تعالى أو القيامة أو غير ذلك، يرى البستاني، أن الراجح هو (يوم القيامة) ودليله، انسجام ذلك مع هندسة النص «حيث إن عمارة السورة القرآنية، تخضع لتخطيط هندسي ترتبط (بدايته) (بالوسط) وب (الختام) ارتباطاً عضوياً يكشف بأن المقصود من تساؤل البعض عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون هو : اليوم الآخر». (البستاني، ١٤٢٣هـ، ٥ : ٢٦٢).

- المنهج البلاغي

يستدعي المنهج البنائي عند الدكتور محمود البستاني، تأصيلاً آخر يرتبط بـ (المنهج البلاغي) بما يفرزه من قواعد ومبادئ يتوكأ عليها الأدب أو الفن، ومن المنطقي أن يختلف بناء الأدب باختلاف المبادئ التي يستند إليها، ومن هنا وجد البستاني أنّ بقاء النص الأدبي، أسير الرؤية البلاغية التقليدية، سيفضي إلى تغييب جماليات النص القرآني بغياب معناه الكلي وترابطه العضوي، وهو المطلب الأسنى للنظرية البنائية.

ينطلق البستاني في نقده للمنهج البلاغي القديم من مجموعة أسس، بعضها يندرج تحت العنوان المعرفي، وبعضها الآخر، يتصل بقيمة النصوص الجمالية، ومن أهم هذه الأسس: الأول: إنّ عموم إعجاز القرآن وشموليّة خطابه، تستدعي أن لا يكون لقوم من دون قوم، ولا لأمة من دون أخرى، وهذا بدوره يستدعي أن يكون الكتاب الإلهي، متماشياً من حيث المبدأ مع آخر ما تجود به البشرية من مناهج نقدية، فإنّ في الرفض المطلق لتلك المناهج، حرماناً لأجيال وأجيال من الاستفادة من معارف القرآن وجمالياته وحقائقه، ووفقاً للبستاني فإنّ النص القرآني المعجز «يتميز بطابعين مهمين جداً، هما الطابع المحلي والطابع العالمي أو الطابع الخاص و الطابع العام، ونقصد بالطابع المحلي أو الخاص هو ما يتوافق والذوق الأدبي الذي تحياه البيئة التي جاء القرآن الكريم من خلالها، وأما المقصود بالإعجاز العام فهذا ما يتناول الأجيال الأدبية جميعاً، أي ثمة خصائص فنية أو بلاغية أو أدبية، تعبر لتخوض الزمن الذي ولدت في نطاقه لتتسع وتشمل كل الأجيال، من حيث الخصائص الفنية المشتركة بين هذا الجيل أو ذاك أو من حيث الخصائص التي يستطيع كل جيل أن يكتشف من خلالها بعداً واقعياً يتصل بالنص الأدبي وبلاغته». (البستاني، ٢٠٠٦م، ١٥٦).

الثاني: إنّ المهمة العبادية للشخصية الإسلامية، هي توصيل مبادئ الإسلام إلى الآخرين، وهذا يوجب أن تكون الأداة التي يُعتمدها متجانسة مع لغة عصره حتى تترك تأثيرها المطلوب أولاً، ويكون المنقول مستوعباً لمبادئ عصره ثانياً، فالقرآن الكريم «بما أنه يخاطب كل جيل بلغته حينئذٍ، يتضمن بالضرورة مبادئ تتوافق والمبادئ التي يكتشفها هذا الجيل أو ذاك، سواء كان هذه الجيل موروثاً كما لاحظنا في البلاغة الموروثة، أو كان الجيل حديثاً كما نلاحظ ذلك في البلاغة الحديثة أيضاً، وهذا كله يستاقنا إلى القول بأنّ البلاغة أو الإعجاز القرآني البلاغي، يظل مفتوحاً ولا يتحدد فحسب وفق المبادئ التي نكتشفها حديثاً، بقدر ما يعني أنّ ثمة مبادئ أخرى لعلها تكتشف في ضوء ما يتوقع اكتشافه في العصور المقبلة». (المصدر نفسه، ١٦٢)

الثالث: إنَّ الإسلام -بحسب البستاني- لم يقدِّم لنا قواعد جاهزة، بل قدّم لنا نصوصاً تتبني على قواعد، وهذه القواعد فيها ما هو عابر لحدود الأزمان، ويشترك فيها الجميع بما هي قواعد عامة، ومساحة مثل هذه القواعد العامة محدودة، فيما الغالب في الأدوات والقواعد المنهجية، أنه قد ترك أمرها لكل شخص، إذ يستطيع أن يستخلص القواعد، وفقاً لطبيعة الثقافة التي تغلفه و البيئة التي ينتسب إليها، ومن هنا نجد «أنَّ النَّصَّ القرآني الكريم، قد راعى من جانب . لغة العصر؛ حيث كان النثر المقفى في العصر الجاهلي يقف قبالة الشعر المقفى، حتى لكأنَّ الفارق بين النثر والشعر آنذاك هو: انتظام الوزن في تفعيلاته المعروفة فحسب، و لكنَّ القرآن . من جانب آخر . راعى مطلق المعايير الفنية متمثلة في النثر المرسل الذي يظل طابعاً لكل الأجيال الأدبية؛ قديماً وحديثاً، مما يعني أنَّ هناك معايير مُطلقة في البلاغة الإسلامية، لا تخص بيئة دون أخرى، مقابل معايير نسبية تراعى من خلالها طبيعة المرحلة التاريخية التي تطبع هذا العصر أو ذاك». (البستاني، ١٤١٤ هـ، ١٨).

الرابع: يأخذ البستاني على البلاغة القديمة، تناولها الجزئي للنصّ في إطار المفردة أو الجملة أو الفقرات المحدودة، بدلاً من التناول الكلي للنص، مع أنَّ النصّ الأدبي لا تنحصر جماليته في فقرات أو آيات مستقلة، بل التناول الكلي للنص، يجعل منه جُملاً أو آيات يرتبط بعضها مع الآخر، ويخضع لهندسة خاصّة من حيث تنسيق الأفكار والمواقف، بما يجعلنا نواجه نصّاً فنياً، متناسق الأجزاء على نحو التناسق الذي نلاحظه في تركيب الجسم البشري، أو سائر الأجسام والأشكال الطبيعيّة منها أو المُصطنعة، وهي جماليّة جديدة لا تنتجها القواعد البلاغية القديمة. (البستاني، ١٤٢٤ هـ، ١٠)

والنتيجة العامة التي يمكن الخروج بها، من خلال موقف البستاني من البلاغة القديمة، وتصوره لما يجب أن يكون عليه، المنهج البلاغي، تتلخص في ضرورة أن تكون القواعد البلاغية، جامعة بين (السكون والسيرورة) فهي ساكنة بلحاظ القواعد التي لا تختص بجيل من دون آخر، ولا بزمن من دون سواه، وقد أثبتت التجربة أنَّ المتأخرين، حافظوا على مجموعة قواعد ورثوها عن المتقدمين، شعوراً منهم بأنّها عابرة للأزمان وللثقافات المتنوعة، وهي متحركة بلحاظ تلك القواعد التي تختلف باختلاف الثقافات والتجارب، فما يكون اليوم مناسباً، يمكن أن يكون غداً ليس كذلك، وما نعده الآن متحرّكاً، ربما عاد بعد حين ساكناً، ومن هنا يغدو «طبيعياً أن نضع في الاعتبار أيضاً أنَّ المبادئ البلاغية، لا يعني أنها تمتلك تصوراً كاملاً للفن وصياغته، بقدر ما ينبغي أن يأخذ ذلك وفق نسبية معينة في هذا المجال، وإلا لو كانت المبادئ الأدبية تتسم بالكمال لما تطورت خلال الأجيال المتقدمة، ومجرد كون كل جيل يكتشف بعداً جديداً من المعرفة الأدبية أو المبادئ البلاغية، تظل

متسمة بالقصور بدليل أنها تخضع جيلًا بعد جيل لاكتشاف أو تخضع لتطور جديد، وهكذا». (البستاني، ٢٠٠٦ م، ص ١٦١).

نلاحظ في نقد الدكتور البستاني لمنهج البلاغة الموروثة، حضور الاتجاه البنائي، مثلما رأينا في حديثه عن تناول الجزئي والكلي للنص، وهذا يقودنا إلى التساؤل عن مصدر هذا الاتجاه في وعي الدكتور البستاني؟ هل هو نتاج عملية تأملية صرفة؟ أو من آثار الانفتاح على المدارس النقدية والنفسية الحديثة؟

يبدو من متابعة كلمات البستاني، أنَّ حضور الرؤية البنائية في هذا المقطع تحديداً، يعود إلى الانفتاح على مخرجات المدارس الأدبية والنفسية الحديثة، فهو وفي سياق نقده للبلاغة الموروثة، يحاول أن يلتمس العذر للبلاغيين القدامى، بأنَّه لا يمكن مطالبهم بتجاوز عصرهم وصياغة قواعد بلاغية، لا تسمح بها ثقافتهم الفنية، أي «أنَّ القدامى لم يتييسر لديهم، وعي ثقافي يسمح لهم بدراسة النص الأدبي، من خلال الوحدة العضوية التي تربط بين أجزاء النص من جانب، وبينه وبين عناصره التي يتألف منها من جانب آخر. حيث تتطلب مثل هذه الدراسات ثقافة فنية ونفسية واجتماعية، لم تتوفر إلا في العصور الحديثة كما هو واضح». (<https://www.quranicthought.com/ar/books>)

وهذا بحد ذاته، يصلح شاهداً على أنَّ التطوير الذي يطالب به البستاني، هو وفي جزء كبير منه يرجع إلى مخرجات المدارس النقدية والنفسية المعاصرة، ولا سيما أنَّ البستاني استحضر في الكشف عن قصور بعض القواعد البلاغية، بعض المبادئ النفسية، واصفاً تحليل البلاغيين، بأنَّه «يفتقر إلى معرفة أبسط المبادئ النفسية» ومتسائلاً «هل أنَّ قوانين الإدراك البشري وما يُواكبها من قوانين الاستجابة تؤيد مثل هذه المزاعم التي ينثرها البلاغيون، دون أن يلموا بمبادئ الإدراك البشري وطرائقه...؟!» ومقرراً «أنَّ هذه القوانين تُخضع كلَّ شيء للسياق؛ بحيث تصحَّ القاعدة التي ذكرها البلاغيون في سياق خاص، ولا تصحَّ في سياق آخر». (البستاني، ١٤١٤ هـ، ص ١٤).

ولعل حديث الدكتور البستاني عن الأعمال الأدبية الحديثة من رواية ومسرحية وقصيدة، ومآلاتها التي انتهت إليها من بناء النص الأدبي على وفق مبنى هندسي، يتم فيه إخضاع موضوعات لا علاقة بينها لفكر أو شعور، يوحد بينها ويمثل قاسماً مشتركاً بين تلك المتباينات فقد «ساهمت مكتشفات علم النفس الحديث (بخاصة المدرسة التحليلية والجشطالتيية) في دفع هذا الاتجاه الأدبي إلى الأمام، مفيداً من عمليات التداعي الذهني و الإدراك الجشطالتي، أي: إدراك الشيء من خلال كليات، ونحوهما من العمليات النفسية الأخرى في صياغة العمل الأدبي، عبر تناوله الموضوعات لا رابطة بينها وإخضاعها لعملية فكرية توحد بينها» (البستاني، ١٩٩٢ م، ص ٩٣) يؤكد ما قلناه عن تأثر البستاني بالتقنية

الأدبية المعاصرة، ولاسيما وهو يؤكد أنّ «ما يعيننا هذا من التلميح العابر الى التقنية الأدبية المعاصرة، لفت الانتباه الى الأهمية الفنية لسور القرآن الكريم من حيث تنوع موضوعات كل سورة، وتلاحم هذه الموضوعات فيما بينها من خلال خيط فكري يجمع بينها». (المصدر نفسه). إنّ نقادًا متعددين، يقف في طليعتهم (الفراهيدي . الخولي . سيد قطب) قد دعوا إلى إعادة النظر في القواعد البلاغية الموروثة، مقدمة لإعادة النظر في مقارنة القرآن الكريم، وهي دعوات يحضر فيها الانتقال من التناول الجزئي إلى التناول الكلي للنص (عبد الحميد، ١٩٩٩م، ١٣)، بيد أنّ ما ميّز الدكتور محمود البستاني، عن تلك الدعوات، أنّه لم يقتصر على النقد مجردًا ولا قدّم تصورات عامة، ولا قارب النص الديني جزئيًا، ولا جعل عمله وقفًا على الحقل الشرعي، بل على العكس من ذلك كله، نرى حضور نقد البلاغة القديمة، مصحوبًا بمنهج بلاغي متكامل، عبر عنه، أكثر من مؤلف بلاغي تخصصي، ثم حاول أن يرسم ملامح النص النموذج بلاغيًا، وأن يقارب النص الديني، قرآنًا أو حديثًا، وفقًا لهذا المنهج الجديد الذي امتلك (براءة) اختراعه أو اكتشافه، وبكلمة أخرى: لقد جمع البستاني في هذه الجزئية بين التأسيس النظري والتطبيق العملي تفصيلًا، وهو أمر لم نجده عند من سبقه.

إنّ موضوعة التأسيس البلاغي عند الدكتور محمود البستاني، بما هو أساس العمل الأدب الذي يتكئ عليه، تقودنا إلى الحديث عن عموم التأسيس المنهجي فيما خص (ضوابط قراءة النص)، وبالتتبع ما يمكن عدّه مساحة التقاء أو افتراق بينه وبين المناهج النقدية المعاصرة.

-موقع المتلقي

يشغل (المتلقي) في مقارنة الدكتور محمود البستاني، موقعًا متميزًا، إذ يمكن عدّ التصور الذي قدمه البستاني عن (التلقي)، برزخًا بين اتجاه التلقي السلبي الذي يجعل من المتلقي عنصر استهلاك وانفعال وبين الاتجاه الذي يجعل من المتلقي (مبدعًا) ومساهمًا في إنتاج النص، وفي الوقت نفسه، وتصور البستاني لموقع المتلقي، يتضح في جانبين رئيسين: الأول- عملية التلقي التي يبني عليها الترابط البنائي للنص .

الثاني- عملية (الاستخلاص) سواء في التعددية الدلالية أو في الجانب الجمالي للنص. دعا الدكتور البستاني إلى المزاوجة بين دراسة البناء العضوي للسورة وبين عملية (التلقي) . إنّ دعوة البستاني هذه، توحى بأنه يرى بناء النص (في النصوص العادية وغيرها) وفهمه، (عملية تكاملية) بين المبدع والمتلقي، فمنتج النص، يضع نصب عينيه: (قوانين الإدراك الذهني وأساليب استثارته) ثم يصوغ النص على هذا الأساس، فيما المتلقي، وفي مرحلة اكتشاف دلالة النص، يوظف تلك القوانين أو بالأحرى، يعترف بقيمتها ويخضع

لمؤداها، من خلال القراءة الواعية، لفهم النص واكتشافه، بل وجدنا البستاني يترقى في حصر تأثير التلقي على اكتشاف النص واستخلاص الدلالة، فيذهب إلى أنه حتى القراءة اللاواعية، تخلف أثراً عند المتلقي وفي سياق التحليل الذهني، يأتي (الأثر الكلي لقراءة النص) في تحليلية البنائية فالمتلقي . مثلما هو مشاهد . يتفاعل مع النص من خلال كله، فهو وبعد الانتهاء من قراءة النص، يظفر بمراده الكلي حتى ولو كان بصورة إجمالية غير واضحة تمام الوضوح، تبعاً لدرجة (وعيه بالقراءة)، وهذا التأثير قد يكون (غير واع) وغائماً، ولكن مع ذلك، نحن «نحس بأثر إجمالي مركب من أفكارها الرئيسية والثانوية والعرضية والطارئة قد نسجها التداعي الذهني أو التضاد أو التماثل أو الآليات الذهنية والنفسية الأخرى التي تتشابه لتصوغ الأثر المشار إليه» (البستاني، ٢٠٠١م، ١٦)، ومن هنا رأيناه يدعو إلى إخضاع النص إلى فكرة عامة يستهدفها، حتى تترك تأثيرها في المتلقي، فمن دون ذلك، ينتفي مفهوم الهدف الذي يحوم النص حوله، وهذا بدوره، يفضي إلى أن عملية التلقي، تضطلع بوظيفة الكشف عن كلياته السورة، وبالتبع عن ترابط النص وتلاحم أجزائه، ونتيجة هذا التصور هو أن للمتلقي، دخالة بما هو عنصر فاعل في العمل الإبداعي من جهة صياغة النص على مقاسات قوانين الاستجابة المتحركة في ذهنه، ومن جهة عملية الكشف والاستخلاص التي يؤديها، ضمن نقديته الخاصة؛ ولهذا السبب شدد البستاني، على أن جودة النصوص الأدبية، تدور مدار سلوك أساليب خاصة، للسيطرة على ذهن القارئ ومعرفة كيفية الاستجابة الذهنية للقارئ من عدمه، وإحدى خصائص النص النموذج بنظر البستاني، تتلخص في اعتماد النص أساليب معينة، لا تهمل قوانين الاستجابة الذهنية لدى المتلقي، مما يكون معها، محتفظاً بالانطباع العام الذي تخلفه قراءة النص، سواء أكانت مقاربتة للنص واعية أم غير واعية. (المصدر نفسه، ١٥)

إذ إن البستاني، ينطلق من (التصور الإسلامي للسلوك) والذي يفرض وجود هدف للنص، تنتفي معه العبثية، فقد ألفت هذه النتيجة بظلالها على دور المتلقي ونطاق حركته في فهم النص واستخلاص دلالاته، فالمتلقي مطلق العنان، بالنسبة لإحياءات الصورة الفنية، بما تكتنزه من دلالات واستخلاصات، وهي تمتد بامتداد خبرة المتلقي وذوقه، فنكون نتيجة لذلك (لا أقل في النص القرآني) أمام (دلالات لا نهائية)، ومن الطبيعي وبلحاظ ما تقدم أن يتعدد المعنى بتعدد المتلقين، تبعاً لاختلاف ثقافتهم وخبراتهم، و عبر ما سماه البستاني بـ (الاستيحاء الفني) الذي يظهر في المقاطع المحذوفة من النص أو المقاطع المذكورة لكنها مع ذكرها تكون رمزية أو مكثفة، وهذا « يجعل القارئ مفسراً للنص بحسب خبرته التي تتفاوت من واحد إلى آخر». (البستاني، ١٤٢٤ هـ، ٦١). غاية الأمر أن الدكتور البستاني، يقصر ذلك على الصورة الفنية التي يجسدها (الرمز) أو الاستعارة، فالبستاني،

يعتقد أنّ أهمية الاستعارة أو الرمز، تكمن في أنها مرشحة لدلالات واستخلاصات متعددة، يمكن لكل متلق أن يستخلصها على وفق ما يملكه من خبرة ذوقية، ويعلل ذلك بأن الصورة الفنية في ظرف كونها رمزاً، تخالف التعبير المباشر أو التعبير العلمي، بما تنطوي عليه من إحياءات متنوعة، ويرى أنّ الرمزية وبما تشي به من إحياءات، تأتي استجابة للعلاقة المتفاوتة بين ما يخترنه الذهن البشري من خبرات وتجارب واعتمالات نفسية، وبين شحة التعبيرات اللفظية المباشرة «فالألفاظ المعجمية التي نتداولها في أحاديثنا أو كتاباتنا محدودة لا تتجاوز آفاقاً من الكلمات، بينما نجد أنّ المعاني أو الخبرات النفسية التي نحياها تحتشد بأضعاف ذلك، ولا تجد ألفاظاً تستودعها. من هنا يجيء الرمز أو الاستعارة أو التشبيه ونحوها من الصور الفنية بمثابة أوعية مفتوحة، لتتكسب فيها الدلالات المتنوعة التي لا نجد الألفاظ مستوعبة لتفصيلاتها» (محمود البستاني، ١٤٢١هـ، ٣٥٢).

وبالاستناد إلى هذه الحقيقة، التي يعتمدها البستاني، ثابتاً يؤيده المعنيون بشؤون الفن، تتجلى حقيقة التعبير القرآني، إذ نجده «يبتخب في كثير من الصور ما يرشح بدلالات لا نهائية، مفتوحة، متروكة لكل متلق يستخلص منها ما شاء له من الاستخلاصات» (المصدر نفسه). ولا يقف الدكتور البستاني، عند حدود شهادة (المعنيين بشؤون الفن) للتدليل على لا نهائية الإحياء، بل يعمد إلى ما يمكن عدّه دليلاً كلامياً، ينطلق من مسلمة دينية، ترى أن القرآن كلام الله تعالى، وكلام الله لا بد أن يتسم بالكمال الذي لا يقف عند حد «ومن ثم فإنّ أي تعبير عن هذا الكمال، يظل موسوماً بقبليّة إحيائية لا نهاية لها، تتناسب مع مطلّية الله تعالى» (محمود البستاني، ١٤٢١هـ، ٣٥٢).

وبموازاة ذلك، لا يمكن (فتح الدلالة المضمونية) في وجه المتلقي لا إلى نهاية؛ لأن ذلك خلاف وظيفة النص في توصيل مبادئ خاصة للمتلقي، بل هي محصورة في نطاق (المفاهيم - المصاديق - ملء الفراغات). (البستاني، ١٤٢٢هـ، ٤٦)

لقد ألقى التصور الخاص الذي قدمه البستاني عن (التلقي والمتلقي) بظلاله ليس على صياغة النص الأدبي وتقنيات بنائه فحسب، بل حتى على (البلاغة القديمة) التي نقدها البستاني، انطلاقاً من (عملية التلقي) التي يرى البلاغة تخالفها، عندما لا تتواءم كثير من قواعدها، مع قوانين الإدراك البشري وما يواكبها من قوانين الاستجابة لدى المتلقي (البستاني، ١٤١٤هـ، ١٦).

وتبقى النقطة الأهم في موقعية المتلقي بحسب تصور الدكتور في البستاني، تلك المتعلقة بالموقف من (الإعجاز القرآني البلاغي) الذي يعده البستاني، إعجازاً مفتوحاً، لا يتحدد بمبادئ جيل من دون آخر، بل تبقى على الدوام ثمة مبادئ أخرى قد يماط عنها اللثام عبر عملية الاكتشاف التي يمارسها كل جيل، وقد افضى به هذا التصور إلى القول ب

(سيرورة) المبادئ البلاغية وتكشفها المتدرج، فكلما اكتشف جيل منها جانبًا ، ظل جانب آخر غير مكتشف (البستاني، ٢٠٠٦م، ١٥٦)، ومؤدى تصور البستاني هذا، يقودنا إلى القول بـ(حركية) البلاغة القرآنية وعدم جمودها في لون محدد من جهة، وإنَّ المتلقي يضطلع بمهة الكشف عن الجوانب غير المكتشفة من قواعدها بما يتناسب مع خبرته وثقافته وذائقته من جانب آخر.

وفي ضوء ما تقدم، يمكن القول إنَّ أظهار ميزات بنائية البستاني التي تميزت بها عن غيرها، تكمن، في إفرادها مساحة كبيرة للمتلقي، وإيلائها أهمية بالغة لعملية التلقي، سواء في بعدها النظري الذي تكفل البيان النظري لحقيقة التلقي وفق رؤية تحليلية معمّقة للإدراك الذهني وقوانين الاستجابة وما يصاحبها من إثارات نفسية وتداعيات ذهنية، أو في بعدها التطبيقي الذي أخذ فيه المتلقي مساحة لافتة في بناء النص وتحليله، ولو قلنا بأنَّ هذا الأمر لم نجده في سائر النظريات التي انتهجت المقاربة العضوية للنص القرآني، لما ابتعدنا عن الصواب ولا خالفنا الموضوعية في شيء .

المبحث الثالث: القراءة النموذجية للنص.

تندرج القراءة بحسب البستاني ضمن ما تقدم الحديث عنه مما أسماه بـ(المهمة العبادية) التي أوكلتها (السماء) إلى البشرية، وهي (فعالية) من فعاليات متعددة، تمثل إفرادًا لقانون: (التجربة) أو (الاختبار) أو (الابتلاء) التي يخضع لها الإنسان في حياته الدنيا.

وهذا التصور الذي يقدمه الدكتور البستاني، يجمع بين الحرية والتقييد في الوقت نفسه، فالإنسان ليس مطلق العنان في ممارسة (القراءة) بما للحرية من معنى قد تصل حد العبثية ومناقضة أصل الهدف الذي وجد لأجله والمهمة التي أوكلت إليه، ولا هو مسلوب الاختيار، إذ يتحول إلى عنصر (انفعال) و (استهلاك) بل القضية أشبه ما تكون بـ (أمر بين أمرين).

المهمة العبادية بنظر الدكتور البستاني، تمثل سقفًا أعلى، تنتظم على أساسها عملية (القراءة) فلا تخرج عن محدداتها المرسومة، وبذلك تكون القراءة سنة من السنن الإلهية التي تحكم حركة البشرية، شأنها في ذلك شأن سائر القوانين والسنن التي تشكل، إرادة الإنسان واختياره، جزءًا فاعلاً في النتيجة التي ينتهي إليها. إنَّ التصور أعلاه والنابع من رؤية كلامية، ترتبط بنظام الوجود ودور الإنسان، يفضي بنا إلى معرفة الضوابط العامة المجعولة لعملية القراءة المثلى، وتحديد المساحة التي يتحرك فيها (المتلقي) بحرية مسؤولة.

عبر تتبع كلمات الدكتور البستاني، يمكن أن نستشف، مجموعة من الضوابط والأسس التي من شأنها أن تنهض بالقراءة النموذجية، بعضها يتعلق بالمظلة الفكرية للقراءة، وبعضها الآخر بتحديد الممارسة العملية لهذا الفعل، ومن أهمها:

الأول: التصور الإسلامي للسلوك.

بحسب البستاني فإنَّ لصياغة النص الفني، مبادئ نابغة من التصور الإسلامي الخاص للسلوك ومن ثم ينبغي أن يخضع الأدب أو الفن أو البلاغة، لهذا السلوك أو ذاك التصور الذي رسمه القرآن الكريم لنا. (البستاني، ٢٠٠٦م، ١٦٣).

إنَّ التصور الإسلامي في التعامل مع النصوص . وفقاً للبستاني .، ينظر إليه من بعدين: أولهما، نظري وثانيهما، عملي، فالبعد النظري يضمن تحقيق (نصية النص) فلو افترقت النص هذا (الشرط) لما عدَّ نصًّا من الناحية الواقعية، حتى ولو كان واجداً لصفة النص من زاوية شكلية، وهذا الشرط يتلخص بضرورة وجود هدف وراء النص، يريد مبدعه إيصاله إلى المتلقين، فلا مجال لفكرة (العبثية) في صياغة النص وغياب المعنى، تستوي في ذلك النصوص المقدسة وغيرها، فجميع النصوص تريد إيصال مبادئها إلى المتلقين أو هكذا يفترض أن تكون.

إنَّ شرط انطواء النص على هدف، يلقي على عاتق قارئه، مهمة (الكشف) عن دلالات النص وتقريبها إلى المتلقين، في ظرف كون النص (مقدساً) أما في الطرف الذي يكون فيه النص عادياً، فلا بد من ذلك الكشف؛ لأجل الحكم على هدفه، سلباً أو إيجاباً (البستاني، ٢٠٠١م، ٤٦)

والتصور الإسلامي مثلما يراه الدكتور البستاني، يحدد مهمة الكاتب العبادية، في إيصال مبادئ (السماء) إلى الآخرين (من خلال كتابة النص أو نقده) وهي مهمة، لا تتفصل عن السلوك العبادي العام الذي تم إيكاله إلى الإنسان (المصدر نفسه). وهذا الفهم القائم على تحديد دور القارئ والناقد والكاتب بما مر، يحيل بدوره على ضرورة وجود (هدفية) أو (قصديّة) وراء النص، ومن ثمَّ يكون بحد ذاته، ميزاناً توزن به (التيارات) المعاصرة التي تتحدث عن نسبية الحقيقة التي يختزنها النص أو نفيها من الأساس بما يجز وراه من (تعددية) القراءات أو (لا نهائيتها)، إذ « تبقى أمثلة هذه التيارات عديمة المعنى . أي لا معنى لها. بالنسبة إلى مهمة الكاتب الإسلامي بالنحو الذي تمت الإشارة إليه ». (البستاني، ٢٠٠١م، ٤٦). يضطلع التصور الذي يقدمه البستاني، بضبط مسألة تعامل المتلقي مع النص، ويجعلها محددة في الكشف عن دلالاته التي يستخلصها، وهي دلالة قد جعلها النص، مفتوحة من الأساس لتذوق المتلقي الخاص، فالمتلقي مكتشف للدلالة لا مبدعاً لها (البستاني، ٢٠٠١م، ٤٤).

وأما البعد (العملي) فيتلخص عند الدكتور البستاني في ضرورة اكتشاف (مبادئ) جديدة من النص القرآني وأساليب تتوافق وقيم الإسلام، تكون بمثابة (موازن) تتضبط عن طريقها عملية الكتابة والإنتاج الأدبي، ويتم بها الفرز بين الإيجابي والسلبي في النتاجات الحديثة. (المصدر نفسه).

الثاني: اعتماد الروافد الإنسانية المشتركة.

وهذا الضابط يتفرع عن سابقه، فما دام أنّ التصور الإسلامي، يحدد مقارنة النص في الكشف عن دلالاته وخصائصه ومن ثم إيصالها إلى المتلقي، إذ إنّ الإسلام، لم يضع قواعد تفصيلية للـ (قراءة) ومنع من تجاوزها: (https://www.ruqayah.net/print.php?id=383)، مما يعني أنّه ترك وضمن شروط معينة، مساحة كبيرة لتجربة الإنسان وخبرته في ابتكار منهج (قراءة)، تأخذ في الحسبان جملة من المحددات، مادام الأمر كذلك، فإنّ أية مقارنة تتكفل بهذه الوظيفة، ستفرض مسوغاتها وتكتسب مشروعيتها، بمعزل عن طبيعة المقاربة ومنهجها في التعاطي مع النص والكشف عن خصائصه، مع التذكير بضرورة أن تكون تلك المقاربة، نتاج مبادئ علمية أو فنية معتبرة، ففي هذه الحالة «يمكن الإفادة منها مثل سائر الروافد الإنسانية المشتركة، التي يكتشفها العقل البشري من خلال إلهاميه المعرفة، التي ركبها الله تعالى في البشرية في النطاق المعرفي المحدود بطبيعة الحال». (البستاني، ٢٠٠١م، ٤٣).

الثالث . التفريق بين النصوص الفنيّة الخالدة والنصوص العاديّة.

بحسب البستاني، يكمن الفارق بين النصوص الفنيّة الخالدة، والنصوص العاديّة في كون النصوص الأولى، تحمل خصّيتين:

الأولى: تعتمد أدوات خاصّة تتناسب مع طبيعة المرحلة الثقافية التي يعيشها العصر.
الثانية: وفي الوقت نفسه، تعتمد أدوات تتجاوز بها العصر لتتناسب مع الأجيال كلّها.

إنّ ذلك يضيف على (النص الخالد)، السمة الفنيّة المعروفة بـ: (عمومية النص وخصوصيته من جانب، وطابعه الإيحائي من جانب آخر) ومن هنا نجد « أنّ النص القرآني الكريم، مع أنّه يتعامل مع ظاهرة خاصة فإنه يسحب أثره على ما هو عام، هذا من جانب ومن جانب آخر، فإنّ النص القرآني الكريم مرشح أو مرشح بعدة دلالات، بحيث يستطيع كل واحد أن يستخلص الدلالة، التي تتناسب مع خبرته الثقافية أو لنقل من الممكن أن ترشح النص بأكثر من دلالة في آن واحد، بغض النظر عن الاختلاف أو الاشتراك بين الأدواق والأفكار». (البستاني، ٢٠٠٦م، ٢٥٦) ومن الطبيعي، أن تفرز هاتان الخصيصتان، نمطين من الأدوات:

أحدهما: أدوات مشتركة بين الأجيال كلها.

ثانيهما: أدوات متفرّدة تكتشفها الأجيال اللاحقة.

وهذه ميزات لا يمكن توافرها إلا في نصوص نادرة تصدر عن العباقرة

فحسب (<https://library.tebyan.net/fa/Viewer/Text/141653>).

ولا ينتهي الأمر عند هذا الحد بل يفتح التفرّيق على ما هو أوسع من الجانب الجمالي، حين يتم استحضار الجانب الدلالي في النصوص (الخالدة) و (العادية). والنقطة التي يجب التأكيد عليها، هي أنّ البستاني، وإن ذهب إلى (حركية) القواعد المنهجية وقسمها إلى ما يختص بزمان من دون آخر وإلى ما يعم جميع الأزمان، بيد أنّه يعتقد بأنّ النصوص الخالدة (والقرآن في طبيعتها) قد بنيت وفقاً للنوعين السابقين من الأدوات، وإنّ اتصاف هذه النصوص بتلك الخصيصتين، يضيفي عليها صفة (الخلود) أولاً، ويجعل مهمة المتلقي، منحصرة في اكتشاف تلك الأدوات ثانياً، ويمهد الطريق للنسج على منوالها في عملية (الإبداع) ثالثاً.

الرابع: التعامل مع النص في ضوء قوانينه الداخلية.

والمقصود به هو أنّ التعامل مع النص، يتم على أساس كونه بناءً مكتفياً بذاته، ومنطوياً على قوانين داخلية تنتظم أجزائه وعناصره وأدواته، ولا يصر إلى الاستعانة بخارج النص إلا بالمقدار الذي يتطلبه سياق الموضوع الذي يطرحه النص، وبخلاف ذلك يظل التعامل مع النص على وفق قوانينه الداخلية هو المحور الأساس، ويعلل البستاني ذلك؛ بوظيفة النص وهدفه الأساس في إيصال مبادئه إلى المتلقين، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، ومن ثمّ « فإنّ التعامل مع الدلالة وطريقة توظيفها الفني، تفرض على الممارس أن يحصر ذلك في نطاق الدلالة ذاتها وتوظيف، أدواتها دون الحاجة إلى سلطة خارجية ألا في حدود الإضاءة التي يتطلبها الموقف ». (قضايا إسلامية معاصرة، العدد الرابع، ١٩٩٨م، ٥٧).

الخامس: شمولية التحليل لمكونات النص وملاحظة الأسرار النفسية الكامنة وراء النص.

وهذا الملمح، يمثل عصب مقارنة البستاني للنص القرآني، بما هو تناول بنائي لسور القرآن الكريم، يفتح على إظهار الجانب الإعجازي للغة الفنية، ليقودنا ذلك إلى « إبراز جميع الخصائص المرتبطة بقضايا الفن: كاللغة والإيقاع والصورة وغيرها، سواء أكانت هذه الخصائص مألوفة زمن صدور النص كالأمثلة السابقة، أم جديدة عليه كالعنصر القصصي مثلاً ». (قضايا إسلامية، ١٩٩٥م، العدد الثاني، ١٦). إنّ ميزة الدكتور محمود البستاني في مقاربتة البنائية مضافاً إلى تفصيله النظري والمنهجي، تكمن في دراسته النص القرآني بما هو (عمارة أو هيكل) بنائي، يتألف من طبقات وتشارك فيه عناصر شتى، تتلاقى

جميعها لتكوين وحدته العضوية وإنتاج معناه العام، تمامًا مثلما تلتحم أجزاء البنية ومكونات البناء لتشكيل هيكل بنائي متكامل، فيما توزعت الدراسات السابقة والمعاصرة في غالبيتها بين بحث تناسب الآيات وتربطها من دون أخذ المعنى العام والغرض الرئيس للسورة في الحسبان، وبين تناول الوحدة العضوية للآيات والمعنى الكلي للنص، لكن مع الاقتصار على الترابط الدلالي والشكلي من دون أن تفرد مساحة معتدًا بها، لبحث مستويات النص وتجانس عناصره وأدواته وتلاحمها في سبيل تحقيق المعنى العام، وبالضمن الوحدة العضوية للنص، أو أنها توافرت على ذلك لكنها لم تأت على النص القرآني كله، وبكلمة أخرى «إذا كان القدامي قد آمنوا درسا، بأن نسيج القرآن قائم على الوصل ولكن بلا تفصيل، وإذا كان علم المناسبة قام على هذا الإيمان واصطلاح عليه بالمناسبة أو التناسب بحيث تؤدي كل آية تربطها مع الآية الأخرى لتكوين سورة، وتؤدي كل سورة تربطها إلى السورة الأخرى وهكذا إلى نهاية النص، وإذا كان المحدثون نظروا إلى المبدأ الترابطي التناسبي التواصلي نفسه كلٌّ بحسب نظرته إلى زاوية هذا التناسب، أو الترابط فأن البستاني يدور في المذهب نفسه ولكن من زاوية التخطيط الهندسي المعماري الذي نظر فيه البناء إلى كل شيء فيه مهما صغر، ولكل شيء فيه دور ولون وخط لبناء ملامح السورة القرآنية في السورة». (أسد، ٢٠٢١ م، ٢، ٥٤).

السادس: نسبية المبادئ البلاغية :

إنَّ البستاني في تفريقه بين النص (الخالد) والنص (العادي)، يسجل أنَّ النص الخالد الذي يمثل القرآن، مثاله الأوضح، غير مختصِّ بجيل من دون آخر، وما دام كل جيل متمسكًا بالقصور عن إدراك (كنه) النص الخالد بتمامه، فهذا سينتج نتائج عدة: الأولى: إنَّ النص القرآني، مكتمل البناء البلاغي في نفسه، يصيب بعضه أو كله من يصيبه من (المتلقين) ويخطئه من يخطئه منهم.

الثانية: إنَّ الإعجاز القرآني البلاغي يظل مفتوحًا، ولا يتحدد بمبادئ هذا الجيل أو ذلك، بل تبقى على الدوام ثمة مبادئ أخرى، قد يماط عنها اللثام من خلال عملية الاكتشاف التي يمارسها كل جيل.

الثالثة: إنَّ مبادئ البلاغة القرآنية، لا ينبغي أن تتوافق دائمًا وما لدينا من المبادئ اللغوية التي نألفها أو يألفها هذا الجيل أو ذلك، بل المنظور هو أنَّ البلاغة القرآنية وفي الوقت الذي نجد فيها خصوصية هذا الجيل أو ذلك، نجد أيضاً خصوصية أخرى، تتمثل في البعد غير المكتشف بعد، وهو أمر لا يتوافر في أي نص أدبي غير القرآن الكريم. (البستاني، ٢٠٠٦ م، ١٦٢).

الرابعة: إننا لا ينبغي أن نخضع النص القرآني لمبادئ (المناهج الحديثة) بحيث يصير النص القرآني (منفعلًا بها) ومقيّدًا بتصوراتها، حتى في الظرف الذي قد نجد فيه، عدم توافق بين عناصر القرآن والتقنيات الأدبية الحديثة، بل المطلوب هو أن تجد تلك المبادئ الأدبية والتقنيات الحديثة (مشروعيتها) في النص المقدس عبر عملية الاكتشاف والاستخلاص، الذي يمر من خلال (القراءة) التي رسمها التصور الإسلامي.

إنّ النتيجة التي خلص إليها البستاني، في محاولة تشييد منهجه البلاغي وتحديد ضوابط القراءة، تأتي متماهية مع طبيعة النص القرآني العابر لحدود الزمان والمكان، مثلما يفرضه الأساس الكلامي لربانية القرآن الكريم، ويفرضها التصور الإسلامي عن الأداة المثلى في مخاطبة كل جيل بما يحسنه ويتقنه، ومن ثمّ فالنص الديني في بعده الجمالي والدلالي في كثير من أشكاله، لا بد أن يخزن طاقة (ديناميكية) تضمن له الحركة بتحريك الوعي البشري، واختلاف الثقافات وتفاوت الأفهام، ولعل تركيز البستاني على أنّ الإسلام لم يقدم قواعد بلاغية، بعنوان (الوصفة) الجاهزة بل ترك أمر استكشاف (المنهج) إلى المتلقي، ليستخلص ما وافق عصره وطبيعة ثقافته، أقول: لعل ذلك، يشي بإيمان الدكتور البستاني بأنّ قضية (المنهج) سواء البلاغي منه أو عموم المنهج النقدي، من القضايا التي تنتمي إلى ما يعرف بالأدبيات الإسلامية ب (الثابت والمتغير)، فالثابت منه هو تلك الأسس العامة التي جعلها الإسلام، بهدف ضبط حركة الاستكشاف، بما لا تخرج المسألة معه، إلى الفوضى والعبثية أو مناقضة الغرض الذي يريد النص الديني، إيصاله للناس، والمتحرك منه هو أنّ تحديد القواعد وتشخيص المنهج وفي مساحة كبيرة، يقع على عاتق المتلقين، بما يضمن (حركية) المعطى النصي ودوام فاعليته من جهة، و يحقق تفاعل المتلقي واعتماده تجاربه وخبراته وثقافته؛ وما دام الأمر . وبحسب البستاني . متعلّقًا بعملية الكشف عن خصائص الخطاب القرآني، فإنّ تحديد الأسلوب أو المنهج المتكفل بذلك، سيفرض مسوغاته الموضوعية ويمتلك مشروعيتها، من دون فرق أن يكون ذلك المنهج، يعتمد الإضاءة الخارجية في الكشف المذكور أو يتعاطى مع النص على أساس أنه بناء مكتف بذاته وله قوانينه الخاصة به، فالأمر برمته يرجع إلى سياق المقاربة سواء قصدنا به، السياق المتصل بمضمون النص أو البيئة التي نشأ فيها النص أو حتى طبيعة مبدع النص في غير النصوص الإلهية المتعالية عن التأثير بطبيعة منتج النص. (البستاني، ٢٠٠١م، ٤٧).

إنّ الأصل الذي ينطلق منه البستاني، في موقفه من (القراءة) أو (المنهج)، يعود إلى ما تقدم ذكره في مسألة إيكال (الإنارة) التفسيرية، لمطلق النصوص الشرعية وليس النص القرآني الكريم وحده، وفي مساحة كبيرة منها، إلى البشرية للاضطلاع بهذه المسؤولية، عازيًا ذلك، لأسباب ترتبط بطبيعة المهمة العبادية التي أوكلتها السماء إلى البشرية، إذ

أخضعتهم ل(التجربة) أو (الاختبار) أو (الابتلاء) بما يصاحب ذلك من فعاليات متنوعة، ومنها: فعالية القراءة (<https://www.ruqayah.net/print.php?id=383>) ومن الطبيعي أن فعل القراءة المتنوع والمتعدد، يستدعي مناهج وأدوات متغيرة بتغير الزمان والمكان، وهو تغير لا ينفي بالضرورة، وجود المشتركات، ولا يعني القطيعة التامة بين مناهج المتقدمين والمحدثين، وفي ضوء ذلك، سيكون النص القرآني وفي بعده الإعجازي والجمالي في أقل الفروض، (مفتوحًا) من حيث المبادئ المنهجية، ومن حيث الدلالة (الإيحائية).

النتائج

- انطوت مقارنة الدكتور محمود البستاني، على خصائص مهمة، جعلتها متميزة عما سواها من مقاربات، حاولت الخوض في موضوعة (الوحدة القرآنية)، تأتي السعة والشمولية في الحقلين النظري والتطبيقي، في طليعة تلك الخصائص، مضافاً إلى عدم اختصاص بنائية البستاني بالنص القرآني فحسب بل هي تدور مدار النص الأدبي، قرآنًا كان أم غيره.

- ظهر لنا تأثير البستاني بالتقنية الأدبية المعاصرة،، ومقدار اعتماده مخرجات المدارس النفسية (الجشطالت- التحليلية)، فالبستاني يعتقد أن كلا المدرستين، كانتا لهما يد بيضاء على العمل الأدبي من خلال ربط موضوعات العمل الأدبي التي لا رابط بينها، بوحدة فكرية أو شعورية، وإنّ هذا الأمر، قد لفت الانتباه الى الأهمية الفنية لسور القرآن الكريم من حيث تنوع موضوعات كل سورة، وتلاحم هذه الموضوعات فيما بينها من خلال خيط فكري يجمع بينها، والتأثر السالف قد سرى إلى نقد الدكتور البستاني، البلاغة القديمة التي يرى أن كثيرًا من قواعدها، تخالف قوانين الإدراك البشري وما يواكبها من قوانين الاستجابة.

- يستدعي المنهج البنائي عند الدكتور محمود البستاني، تأصيلًا يرتبط ب (المنهج البلاغي) بما يفرزه من قواعد ومبادئ يتوكأ عليها الأدب أو الفن، ومن المنطقي أن يختلف بناء الأدب باختلاف المبادئ التي يستند إليها، ومن هنا وجد البستاني أن بقاء النص الأدبي، أسير الرؤية البلاغية التقليدية، سيفضي إلى تغييب جماليات النص الادبي بغياب معناه الكلي وترابطه العضوي، وهو المطلب الأسنى للنظرية البنائية.

- إنَّ الإسلام- بحسب البستاني- لم يقدّم لنا قواعد جاهزة، بل قدّم لنا نصوصًا تنبني على قواعد، وهذه القواعد فيها ما هو عابر لحدود الأزمان، ويشترك فيها الجميع بما هي قواعد عامة، ومساحة مثل هذه القواعد العامة محدودة، فيما الغالب في الأدوات والقواعد المنهجية، أنه قد ترك امرها لكل شخص بحيث يستطيع أن يستخلص القواعد، وفقاً لطبيعة الثقافة التي تغلفه و البيئة التي ينتسب إليها، وهذا يعني أن هناك معايير مُطلقة في البلاغة الإسلامية، لا تخص بيئة من دون أخرى، مقابل معايير نسبية تراعى من خلالها طبيعة المرحلة التاريخية التي تطبع هذا العصر أو ذاك.

- يحسب للبستاني في مقاربتة البنائية أنه قدم تصورًا عن (القراءة) ووضع لها ضوابط ومحددات، فالقراءة عنده، تدرج ضمن ما أسماه بـ (المهمة العبادية) التي أوكلتها (السماء) إلى البشرية، وهي (فعالية) من فعاليات متعددة، تمثل إفرارًا لقانون: (التجربة) أو (الاختبار) أو (الابتلاء) التي يخضع لها الإنسان في حياته الدنيا.

- فرّق البستاني في مقاربتة البنائية بين النصوص الفنيّة الخالدة و النصوص العاديّة ووفًا له، فإنّ النصوص الخالدة، تعتمد أدوات خاصّة تتناسب مع طبيعة المرحلة الثقافية التي يعيشها العصر وفي الوقت نفسه، تعتمد أدوات تتجاوز بها العصر لتتناسب مع الاجيال كلّها، وهذا بنظره يضيف على النص السمة الفنية المعروفة بعمومية النص وخصوصيته من جانب، وطابعه الإيحائي من جانب آخر، وهذا بدوره يفضي إلى أنّ تكون أدوات مقاربة النص الخالد تتراوح بين أدوات مشتركة بين الاجيال كلّها وأدوات متفرّدة تكتشفها الأجيال اللاحقة.

- إنّ البستاني في تفريقه بين النص (الخالد) والنص (العادي)، يسجل أنّ النص الخالد الذي يمثل القرآن، مثاله الأوضح، غير مختصّ بجيل من دون آخر، وما دام كل جيل متسمًا بالقصور عن إدراك (كنّه) النص الخالد بتمامه، فهذا سينتج نتائج عدة:
الأولى: إنّ النص القرآني، مكتمل البناء البلاغي في نفسه، يصيب بعضه أو كله من يصيبه من (المتلقين) ويخطئه من يخطئه منهم.

الثانية: إنّ الإعجاز القرآني البلاغي يظل مفتوحًا، ولا يتحدد بمبادئ هذا الجيل أو ذاك، بل تبقى على الدوام ثمة مبادئ أخرى، قد يماط عنها اللثام من خلال عملية الاكتشاف التي يمارسها كل جيل.

- لا يجد الدكتور محمود البستاني، مانعًا في اعتماد الروافد الإنسانية المشتركة، ما دام أنّ التصور الإسلامي، يحدد مقاربة النص في الكشف عن دلالاته وخصائصه ومن ثم إيصالها إلى المتلقي، إذ إنّ الإسلام، لم يضع قواعد تفصيلية للـ (قراءة) ومنع من تجاوزها، مما يعني أنّه ترك وضمن شروط معينة، مساحة كبيرة لتجربة الإنسان وخبرته في ابتكار منهج (قراءة)، تأخذ في الحسابان جملة من المحددات، ومن هنا فإنّ أية مقاربة تتكفل بهذه الوظيفة، ستقرض مسوغاتها وتكتسب مشروعيتها، بمعزل عن طبيعة المقاربة ومنهجها في التعاطي مع النص والكشف عن خصائصه، مع التذكير بضرورة أن تكون تلك المقاربة، نتاج مبادئ علمية أو فنية معتبرة، و بما لا تخرج المسألة معها إلى الفوضى والعبثية في الفهم أو مناقضة الغرض الذي يريد النص الديني، إيصاله للناس.

- شغل (المتلقي) في مقاربة الدكتور محمود البستاني، موقعًا متميزًا، إذ يمكن عدّ التصور الذي قدمه البستاني عن (التلقي)، برزخًا بين اتجاه التلقي السلبي الذي يجعل من المتلقي

عنصر استهلاك وانفعال وبين الاتجاه الذي يجعل من المتلقي (مبدعاً) ومساهمًا في إنتاج النص في الوقت نفسه، ويمكن القول إنَّ أظهر ميزات بنائية البستاني التي بها تميزت عن غيرها، تكمن في إفرادها مساحة كبيرة للمتلقي، وإيلائها أهمية بالغة لعملية التلقي.

المصادر والمراجع

١. ابن نبي، مالك، ١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠م، الظاهرة القرآنية، دار الفكر، دمشق
٢. باجودة، محمد حسن، ١٩٨٣م، الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، المملكة العربية السعودية، جدة.
٣. البستاني، محمود، ١٤١٤ هـ، القواعد البلاغية في ضوء المنهج الإسلامي، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد
٤. البستاني، محمود، ١٤٢١ هـ، دراسات فنية في سور القرآن، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد
٥. البستاني، محمود، ١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١م، المنهج البنائي في التفسير، دار الهادي، بيروت
٦. البستاني، محمود، ١٤٢٣ هـ، التفسير البنائي للقرآن الكريم، مجمع البحوث الإسلامية، مشهد
٧. البستاني، محمود، ١٤٢٤ هـ / ١٣٨٢ هـ ش، البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي، دار الفقه للطباعة والنشر، قم
٨. البستاني، محمود، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٧م، دراسات في علوم القرآن الكريم، مدينة العلم، قم
٩. البستاني، محمود، ٢٠٠٦م، محاضرات في علوم القرآن، دار البلاغ للطباعة والنشر، بيروت
١٠. البستاني، محمود، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م، الإسلام والفن، مجمع البحوث الإسلامية للدراسات والنشر، بيروت
١١. البستاني، محمود، ١٤١٣ هـ / ١٩٩٢م، الإسلام والفن، بيروت- مجمع البحوث الإسلامية للدراسات والنشر.
١٢. التفسير البنائي: حوار مع الدكتور محمود البستاني، قضايا إسلامية معاصرة، العدد الرابع . بيروت ١٤١٩ هـ ١٩٩٨م،
١٣. الحميداوي، محمد، النظرية البنائية عند محمود البستاني بين الأصالة والمعاصرة: مقارنة في ضوء اللسانيات النصية، أطروحة دكتوراه، في (اللغة العربية وآدابها) نوقشت و أجازت من جامعة طهران - مجمع الفارابي ، ٢٠/٨/٢٠٢٣م
١٤. الخالدي، صلاح عبد الفتاح، ١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠م، المنهج الحركي في ظلال القرآن، دار عمار، عمان

١٥. الرفاعي، مصطفى صادق، ١٩٩٧م، تاريخ آداب العرب، مكتبة الإيمان، مصر
١٦. رشواني، سامر عبد الرحمن، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: دراسة نقدية، دار الملتقى، حلب
١٧. سعيد حوى، ١٤٢٤هـ، الأساس في التفسير، القاهرة- دار السلام، استرجعت في تاريخ ١٩ مايو ٢٠٢٣ من: <https://quranpedia.net/book>
١٨. عبد الحميد، جميل، ١٩٩٩م، بلاغة النص- مدخل نظري ودراسة تطبيقية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة.
١٩. عبده، محمد، ١٤١٠هـ / ١٩٩٠م، نهج البلاغة - خطب الإمام علي (ع)، بيروت- دار المعرفة للطباعة والنشر.
٢٠. عبد الحميد، جميل، ١٩٩٩م، بلاغة النص- مدخل نظري ودراسة تطبيقية، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة-.
٢١. العشماوي، محمد زكي، ١٩٧٩م، قضايا النقد الأدبي، دار النهضة العربية، بيروت.
٢٢. العلواني، طه جابر، ١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م الوحدة البنائية للقرآن المجيد،- مكتبة الشروق الدولية- ، القاهرة.
٢٣. الفراهي، عبد الحميد، ٢٠٠٨م، تفسير نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، الهند- الدائرة الحميدية.
٢٤. الفهم المتجدد لآيات الكتاب المجيد في ضوء منهج التفسير البنائي: حوار مع: د. محمود البستاني، (١٤ / ٨ / ٢٠٠٩م. استرجعت في تاريخ ٨ مايو، ٢٠٢٣ من: http://www.uofislam.net/uofislam/view.php?type=c_book&id
٢٥. نظرة في كتاب: البلاغة الحديثة في ضوء المنهج الإسلامي . استرجعت بتاريخ ١٢ مايو ٢٠٢٣ <https://library.tebyan.net/fa/Viewer/Text/141603>